شذور الابريز في نوابغ العرب والانكليز

السلطان صلاح الدين الايوبي والملك ريكارد الانكليزي

للطبيعة احكام والناس في عرفها سواء ولكنّ الشذوذ كثير والنوابغ غير نوادر فهم الذين اسّسوا الممالك وسنّوا الشرائع ووضعوا العلوم واستنبطوا الصنائع. كأن قوى الطبيعة تملّ من الجري على سننها المألوف فيجتمع بعضها هنا وبعضها هنالك وتصوغ الرجال العظام وتبرزهم على غيرهم من الانام

وهؤلاء النوابغ كثيرون متشابهون في كثير من اطوارهم ولو اختلفوا في الزمان والمكان كأنهم لم يخالفوا الجمهور الاّ لكي يوافقوا بعضهم بعضاً. وقد اخترنا ثلاثة من نوابغ العرب وهم صلاح الدين الايوبي وابو العلاء المعري وابن خلدون المغربي وثلاثة من نوابغ الانكليز وهم ريكارد الملقّب بقلب الاسد وملتن الشاعر وهربرت سبنسر الفيلسوف قصد المقابلة بين كل اثنين من الفريقين. وسنقصر الكلام في هذا الجزء على السلطان صلاح الدين والملك ريكارد

السلطان صلاح الدين الايوبي سلطان مصر والشام والعراق

هو ابو المظفّر يوسف بن ايوب بن شادي الكردي الروادي. ولد بقلعة تكريت سنة ٥٣٢ للهجرة الموافقة سنة ١١٣٧ للمسيح وابوهُ واهله من دوين وهي بلدة في آخر عمل اذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج. خرج منها جدّهُ شادي وابوهُ ايوب وعمهُ شيركوه الى بغداد ثم نزلوا تكريت وكانت اقطاعاً لمجاهد الدين بن عبد الله البيائي فرأى في ايوب والد صلاح الدين عقلاً ورأياً حسناً فجعله دُزدار قلعة تكريت اي حافظاً لها

ثم ان اتابك زنكي صاحب الموصل قصد حصار بغداد فانهزم عنها ووصل الى تكريت فخدمهُ ايوب واقام لهُ السفن حتى عبر دجلة. وبلغ ذلك مجاهد الدين فانكر عليهِ واخرجهُ من تكريت فقصد اتابك الى الموصل فاحسن اتابك اليهِ وعرف لهُ خدمتهُ واقطع لهُ اقطاعاً حسناً وجعلهُ دزدار بعلبك وكانت ولادة صلاح الدين ليلة خروج ابيهِ من تكريت. ثم اتصل بالملك العادل نور الدين زنكي صاحب دمشق ولازم خدمتهُ هو وولدهُ صلاح الدين وسنة تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في الجهاد

وفي تلك الاثناء اقبل الامير شاور وزير العاضد لدين الله العلوي سلطان مصر يستغيث بالملك العادل على الضرغام اللخمي وكان قد خرج عليهِ فتوجه معهُ شيركوه عم صلاح الدين في

جماعة من عسكره وكان صلاح الدين في مقدمتهم فدخلوا الديار المصرية واعادوا الامير شاور الى منصبه الا ان شاور غدر بالامير شيركوه واستعان عليه بالافرنج وحصره في بلبيس . وكان شيركوه قد شاهد البلاد وعرف احوالها وانها مملكة بغير رجال تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال فطمع فيها وعاد الى الشام وهو يحدث نفسه بالعود اليها وامتلاكها . ثم عاد اليها ثانية وثالثة وفي المرة الثالثة قلده العاضد الوزارة بعد ان قتل شاور فدام آمرًا وناهيًا وصلاح الدين يباشر الامور مقررًا لها بدرايته وحسن رأيه وسياسته الى ان مات شيركوه بعد ان رقي سدة الوزارة بشهرين وخمسة ايام

ولما مات شيركوه استقرت وزارة مصر لصلاح الدين وتهيدت له القواعد فبذل الاموال وملك قلوب الرجال وتاب عن الخمر واعرض عن اسباب اللهو وتخلص بقميص الجد والاجتهاد وغشي الناس من مكارم الافضال والانعام . وكانت جنود الافرنج قد قصدت دمياط وحاصرتها بالعدد الكثيرة فجمع الجنود وصدهم عنها بقوة بأسه وحسن تدبيره . ثم سيّر بطلب ابن عم الدين ليتم له السرور فلما وصل اليه الى مصر البسه الامركة فأبى ان يلبسها وقال له يا ولدي ما اختارك الله لهذا الامر الا وانت كفؤ له

ولما ثبتت قدم صلاح الدين في مصر وضعف امر العاضد كتب اليه الملك العادل نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر بالخوف من وثوب اهل مصر وامتناعهم عن الاجابة الى ذلك فلم يصغ نور الدين الى قوله وارسل اليه يلزمه الزامًا لا فسحة له فيه . واتفق ان العاضد مرض حينئذٍ فقطع صلاح الدين الخطبة له ودعا للامام المستضيء بالله العباسي . ثم مات العاضد وانتهت بهِ الدولة العبيدية الفاطمية بافريقية وكانت مدة دولتهم ٢٦٦ سنة . فاستولى صلاح الدين على القصر واموالهِ وذخائره وكان فيه من الجواهر والاعلاق الثمينة ما لم يكن عند ملك من الملوك ومن الكتب المختصة نحو مئة الف مجلد

ثم ارسل نور الدين الى صلاح الدين يأمره ان يجمع العساكر المصرية ويوافيه الى الكرك لمحاربة الافرنج فاجابه الى ذلك ثم اوجس منه خيفة فكتب يعتذر عن الوصول اليه باختلال البلاد المصرية فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين منها . فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع اهله وعمه والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحازمي واعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين على قصده واخذ مصر منه واستشارهم في ذلك . فقام تقي الدين ابن اخيه وقال انا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من اهله . فشتمهم ابوه نجم الدين وانكر ذلك وقال لصلاح الدين لو رأيت نور الدين انا وخالك لم يمكنا الا ان نترجل له

وتقبّل الارض بين يديه ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنّا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وهذه البلاد له وقد اقامك فيها وان اراد عزلك سمعنا واطعنا والرأي ان تكتب اليه وتقول له اني انك تريد الحركة لاجل اخذ البلاد واي حاجة الى هذا يرسل الملوك نجّاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك فما فيها من يمنع عليك. ولما خلا به قال له انت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على سرّك وما في نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك اهم الامور اليه واولاها بالقصد ولو قصدك لم ترَ معك احداً من هذا العسكر واما الآن فاذا كتبت اليه ما اشرت عليك عدل عن قصدك واشتغل ما هو اهم عنده والايام تتدرج والله كل يوم في شأن. ولو اراد نور الدين قصبة بين قصب سكّرنا لفاتلته انا عليها حتى اسمه او اقتل

ولم يزل صلاح الدين على قدم بسط العدل ونشر الاحسان وافاضة الانعام على الناس الى ان مات نور الدين فخُطب له في مصر وضُربت السكة باسمه ثم توجّه الى الشام ودخل دمشق بالتسليم وتسلّم قلعتها وسار منها الى حمص فنازلها واخذها ثم مضى الى حلب ونازلها فاشتد عليه صاحب الموصل عسكراً جرّاراً ليردّه عن البلاد فالتقى بهذا العسكر عند قرون حماه وكسره وقطع الخطبة للملك الصالح بن نور الدين وازالى اسمه عن السكة واستبدّ بالسلطنة. ثم عاد الى مصر وبنى السور والقلعة والمدرسة الشافعية

وكان الافرنج قد زحفوا على بلاد الشام منذ اكثر من ثمانين سنة واستولوا على انطاكية والقدس ومدن الساحل وحاولوا الاستيلاء على دمشق والقطر المصري كلّه. فعزم صلاح الدين على طردهم من البلاد فالتقاه بدوين الرابع ملك القدس بالقرب من مدينة الرملة وكسره كسرة عظيمة وقتل من عسكره خلقاً كثيراً. ولم يرَ صلاح الدين حصناً قريباً ينهزم اليه فطلب الديار المصرية واقام فيها زمناً ثم شعث اصحابه ثم عاد يطلب الشام فنازل حلب سنة ٥٧٩ واستلمها من صاحبها عماد الدين زنكي وسار الى دمشق ومنها الى الكرك وكان صاحبها الامير رينود ده شاتيلبون قد نكث عهود الصلح وقطع السابلة فدافعه بعساكر الافرنج فرحل عنها ونازل الموصل. ومرض بعد ذلك مرضاً شديداً حتى يئسوا منه ثم عوفي وجمع ثمانين الف محارب ونازل عساكر الافرنج بقرب طبرية وحجز بينهم وبين الماء فشوتهم نار السهام وأثخنوهم وصبّت عليهم قارب المنجنيق فاعجزتهم وامتلأت الارض بقتلاهم وفاضت الانهار بدمائهم وأسر منهم خلق كثير وفي جملتهم غاي ده لوزينيان ملك القدس والامير رينود صاحب الكرك. وسميت هذه الوقعة وقعة حطين نسبة الى جبل هناك. ولم يُصَب الافرنج من حين خروجهم الى الشام

بصيدا مثل بهاء. ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وعرضت عليه الاسارى فاجلس ملك القدس الى جانبه وناوله شربة من جلاب وثلج وكان قد اضناهُ الظمأ فشرب منها ثم ناولها للامير رينود فقال السلطان للترجمان قل للملك انت الذي سقيتهُ لان من عادة العرب ان الاسير اذا اكل من مال من اسرهُ أمن. وكان قد هدر دم هذا الامير فعرض عليه الاسلام فلم يفعل فسلَّ السلطان سيفهُ وضربهُ بهِ فحلَّ كتفهُ وثم قتلهُ من حضر ثم التفت الى ملك القدس وطيَّب قلبهُ وقال لهُ لم تجرِ عادة الملوك ان يقتلوا الملوك واما هذا فقد تجاوز الحد ثم نازل عكاء واخذها واستنقذ من كان فيها من الاسارى وتفرقت عساكرهُ في بلاد الساحل فاخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وسار هو يطلب تبنين وكانت قلعة منيعة ونصب عليها المناجق فسلمها واسر من بقي فيها حيًّا ورحل الى صيدا فنزل عليها واستلمها وسار عنها الى بيروت وركَّب عليها المناجيق ودام الزحف والقتال حتى اخذها. واستعصت عليهِ صور فتركها وقصد عسقلان وحاصرها اربعة عشر يومًا واقام عليها المناجيق حتى تسلمها. ثم قصد القدس فاجتمعت اليهِ العساكر التي كانت في الساحل فنصب عليها المناجيق وشدَّد عليها الحصار فسلم اهلها لهُ على ان يؤدي الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والطفل من الذكور والاناث دينارين. ويظهر من تاريخ الافرنج انهُ شفق على السكان وردَّ لهم اسراهم وعاملهم بالرفق اكثر مما تستدعيهِ شروط الصلح الذي عقدهُ معهم

ثم خلَّف اخاهُ الملك العادل بالقدس يقرِّر قواعدها ودوَّخ كل المدن والحصون التي في شمالي بلاد الشام وصالح اهل انطاكية ولم يمتنع عليهِ الاَّ صور سيدة البحار

ولما بلغت اوربا اخبار سقوط القدس اجتمعت جنود الافرنج من المانيا وفرنسا وانكلترا وقصدوا بلاد الشام فنزلوا على عكاء وضايقوها برًّا وبحرًا فاسرع صلاح الدين الى نجدة من فيها فلم يستطع ان يردع الافرنج عنها فاستلموها كما سيجيء. ثم خرجوا يريدون عسقلان فسبقهم اليها وهدمها وكان يحمل الخشب بنفسهِ لاجل الاحراق ثم اخرب قلعة الرملة وكنيسة لد وجرت بينهُ وبينهم وقعات كثيرة فعل فيها ريكارد ملك الانكليز العجائب واذاق جنود صلاح الدين حربًا لم يذوقوا مثلها قط. وصعد ريكارد يريد استرجاع القدس فتفرقت كلمة اصحابهِ وبلغهُ ان اخاهُ يوحنا قد عثا في بلادهِ فراسل السلطان صلاح الدين في المهادنة فتهادنوا على ان يبقى بيد الافرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وان تكون عسقلان خرابًا ويكون صاحب انطاكية وصاحب طرابلس في عقد هدنتهم وان تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين واذن للافرنج في زيارة القدس بلا معارض ونادى المنادي ان

البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة في الامن والمسالمة وجعلت مدة الهدنة ثلاث سنين وثلاثة اشهر

وعاد السلطان صلاح الدين الى دمشق فترحب به الناس وانشدت الشعراء واقام ينشر جناح عدله ويبطل عجاب ابنائه وفضله ولم يطل الامر حتى ادركته الوفاة وكانت وفاته في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ وعمره ٥٧ سنة وبكاه الجميع من عالٍ ودون ودُفن في القلعة ثم بُنيت له قبة في شمالي الكلاسة ونقل اليها

وكان شجاعاً مهاباً ماهراً بفنون الحرب والجلاد كريماً حسن الاخلاق صبوراً كثير التغافل عن ذنوب اصحابه حسن السياسة عظيم الهيبة وافر العدل كثير التواضع واللطف قريباً من الناس كثير الاحتمال والمداراة. وكان يحب العلم والشعر والعلماء والشعراء ويقربهم اليه ويحسن اليهم. ولما ملك الديار المصرية لم يكن فيها شيء من المدارس فعمر مدارس كثيرة ووقف عليها اوقافاً واسعة وبنى مدرسة بالقدس ووقف عليها وقفاً كثيراً

قال ابو الفداء ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة واربعين درهماً وحرم واحد نصوري وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً. وقال العماد الكاتب حسبت ما اطلقه السلطان في مدة مقامه بترج عكاه من خيل عراب واكاديش فكان اثني عشر الف رأس وذلك غير ما اطلقه من اثمان الخيل المصابة في القتال ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به

الملك ريكارد الاول الملقب بقلب الاسد

هو ابن الملك هنري الثاني ملك الانكليز ولد بمدينة أكسفرد سنة ١١٥٥ م وخلف اباه على سرير الملك في اواسط ١١٨٩ وكان ابوه قد خلّف اموالاً وافرة من الذهب والفضة والجواهر الثمينة فاستولى عليها كلها وباع كل ما امكنه بيعه من الاملاك والمقتنيات والقصور والحصون والتيجان والرتب والمناصب لكي يتأهب للحملة على بلاد الشام. ثم جمع الجيوش الكثيرة وجهز الاساطيل الكبيرة وعبّأها بالميرة والسلاح وسار الى ان التقى بملك فرنسا فيلبس الثاني في سهول فزيلي فساروا سوية وافترقا عند مدينة لیون على ان يجتمعا ثانية في صقلية. وكانت اخته متزوجة بملك صقلية وكان زوجها قد مات بلا عقب وازوج واحدة من نسبائه بابن امبراطور المانيا لكي يتصل الملك الى نسلها. فلما وصل ريكارد الى صقلية وجد ان اهاليها قد ملكوا عليها اميراً اسمه تنكرد فنازعه في ميراث اخته ثم اصطلحا وخطب ابنة هذا الملك لابن اخيه ووقعت

الضغائن هناك بينهُ وبين ملك فرنسا لاسباب يطول شرحها وبقيت الاحقاد بينهما الى الممات وكانت سبباً لتفريق كلمتهما في بلاد الشام واضرام نار الحروب بينهم. بعد عودة ريكارد الى بلادهِ ثم اقلعا من صقلية بريدان عكاء فبدَّدت العواصف شمل سفنهما وانكسرت سفينة من سفن ريكارد عند جزيرة قبرص فنهبها التاوطية واسروا من فيها فاقبل عليهم ودوَّخ جزيرتهم وقبض على ملكهم وقيدهُ بالسلاسل وارسلهُ الى قلعة طرابلس. وبلغ عكاء في ثامن حزيران (يونيو) سنة ١١٩٠ وكان ملك فرنسا قد وصل قبلهُ فشدَّدا عليها الحصار برًّا وبحرًا الى ان سلمت فدخلاها ورفع كلٌّ منهما علمهُ على برج من ابراجها. ورفع ديوك أُستريا علمهُ على احد الابراج فبلها فانتزعهُ ريكارد على ما قيل وطرحهُ في الخندق فاغتاظ الديوك غيظًا شديدًا وانتقم من ريكارد وهو راجع الى بلادهِ كما سيجيء. وبعد ايام رجع ملك فرنسا الى بلادهِ وابقى مع ريكارد عشرة آلاف من جنودهِ

ثم خرج ريكارد من عكاء بثلاثين الف محارب والذي يصلاح الدين في اشدود وانتصر عليهِ وزحف على يافا واخذها وكان صلاح الدين قد اخرب عسقلان كما قدَّمنا فمضى ريكارد اليها واخذ في عمارتها وتحصينها وكان يحمل الحجارة بيديهِ واقتدى بهِ كل الرؤساء والامراء ما عدا ديوك استريا فانهُ قال لهُ اني لستُ ابن عمَّار ولا ابن نجَّار. فنفر ريكارد منهُ وطردهُ من المدينة. ثم حصَّن كل المدن والقلاع التي اخربها صلاح الدين ولم ينقضِ فصل الشتاء والربيع حتى حصَّن كل الشطوط البحرية من غزَّة الى عكَّا

وفي غضون ذلك نازلت جنود صلاح الدين يافا واخذتها فبعث ريكارد فرقة من جنودهِ لانتقاذها ونزل هو في سفينة واسرع اليها قبل جنودهِ ولما رأى الاعداء فيها انتضى سيفهُ واندفع عليهم كأنهُ القضاء المبرم فهربوا من وجههِ فكرَّ وراءهم هو وثلاثة من فرسانهِ ثم اجتمعت عليهِ جنود صلاح الدين فاصدقها القتال وفعل بها افعالاً تشيب الاطفال وكان يضرب الفارس بطعنهِ المشهور[1] فيصرعهُ هو وفرسهُ. وذكر بعض المؤرخين ان جواد ريكارد سقط في المعركة فارسل لهُ الملك العادل جوادين لكي يواصل الكرَّ والفرَّ عليهما اعجابًا بشجاعتهِ التي لم يذكر لها مثيل الاَّ في خرافات الاقدمين

وكانت الاخبار تتوارد الى ريكارد منذرة اياهُ بخراب مملكتهِ وخروج اخيهِ يوحنا عليهِ وعزم ملك فرنسا على اجتياح ولايانهِ الجنوبية. وكانت جنودهُ قد ملَّت الاقامة في بلاد الشام وافنتها الحروب والامراض وبدَّد التحزُّب شملها واوهنت الضغائن عزمها فلم يرَ بدًّا من الرجوع

(١) كان ثقل حديد هذا الطبر عشرين ليبرة اي نحو ثماني اقات

الى بلادهِ . فراسل صلاح الدين في طلب الصلح وكان قد رأى منهُ بطلاً عظيماً وشهماً كريماً وكان صلاح الدين قد رأى من ريكارد مثل ذلك وكان يرسل لهُ الهدايا النفيسة ويبولهُ الولائم الفاخرة في اوقات الهدنة فصالحهُ على الشروط المذكورة قبلاً

. . واقلع ريكارد من عكا في ١٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١١٩٢ ودخل اوربا متنكراً ومرَّ في بلاد استريا فعلم بهِ الدبوك ليوبولد المتقدم ذكرهُ فحاتلهُ وقبض عليهِ وكبَّلهُ بالقيود والقاهُ في السجن واقام عليهِ الحرَّاس . ثم اعلم امبراطور المانيا بهِ وكان هذا حاقداً عليهِ لمناصرتهِ ملك صقلية فاخذهُ من الدبوك وطرحهُ في سجنهِ . فارسل الحبر الروماني وحرم دبوك استريا لاجل مافعل وتهدَّد امبراطور المانيا بالحرم . وبعد اللتيا والتي أطلق سبيل ريكارد على ما لبذ فعة للدبوك وللامبراطور فعاد الى بلادهِ بعد ان غاب عنها اربع سنوات واصلح شؤونها وعنا عن اخيهِ وحارب ملك فرنسا مرارًا كثيرة وانتصر عليهِ ثم أُصيب بسهم في كتفهِ فجرح جرحًا بليغًا مات بهِ وكانت وفاتهُ في ٦ نيسان (ابريل) سنة ١١٩٩ وله من العمر ٤٢ سنة

وكان طويل القامة اشقر اللون ازرق العينين جميل المنظر عالي الهمة شديد البأس قوي الحجة فصيح اللسان حوَّادًا متلافًا . وقد اتفق هو وصلاح الدين في انهما كانا اشد الناس بأسًا واقدامًا وبطشًا وعفوًا وكرمًا وحياءً وفي عدم تكليف غيرهما بعمل لم يعملاهُ هما بايديهما فان ريكارد كان يبني الاسوار عند ان بيديهِ وصلاح الدين كان يحمل الحجارة لتحصين القدس . وامتاز صلاح الدين بالحكمة والتأني وريكارد بالحدة والعجلة

الانسان قبل ان يولد

كثيرًا ما تكلَّم الادباء والحكماء عن الانسان بعد الممات وكيف انهُ يصير "جيفة لا تطاق وكريهة لا تستطيع ان تنظرها الاحداق" ويتولاهُ الدود والبلى فيذهبان بعناصرهِ ابدى سبا . ولكن قلَّ من تكلَّم منهم عنهُ قبل الولادة وكيف انهُ يكون نطفة صغيرة لا تفرق عن نُطف غيرهِ من الحيوان ثمَّ يتدرَّج في البناء والتركيب الى ان يصير جنينًا كاملاً . وقد قصدنا ان نبيِّن بعض ذلك في هذه المقالة مجتنبين الاصطلاحات الشريحية والفسيولوجية على قدر الطاقة لتكون مفهومة لدى الخاص والعام . والضرورة تقضي ان نخالف هذا المألوف عادتنا فربما ذكرنا الفاظًا نتحاشى عن ذكرها في غير هذا المقام

المقرر اليوم ان الحيَّ لا يتولَّد الاَّ من حيٍّ آخر خلافًا لما كان يُزعم قبلاً من ان الهوام والحشرات